المرأة في الجاهلية

حبيب الزيات

كل من عانى البحث في أحوال العرب في الجاهلية، وتصفح ما دُوِّن عنهم في أسفار التاريخ الإسلامية، يعلم ما يكتنف تلك الأعَصار من الظلمات الطامسة على آثارها المودية بكثير من صحيح أخبارها، بحيث كان هذا اليسير المنقول منها لا يسدُّ حاجةً ولا يشفي غلةً، فضلًا عما يتنازعهُ من الأقوال المتناقضة، والروايات المتضاربة التي لا يصح معها رأي ولا يتَّجه بها حكم، وفضلًا عن كون أكثر هذه الروايات واردًا مورد الأقاصيص والخرافات، مما لا يتضح بهِ بحث ولايبنى على مثلهِ علم؛ ولذلك لم يكن بدٌّ للناظر في هذا الصدر من تاريخ العرب، المستزيد بيانًا لأحوالهم وتفصيلًا لوجوه معيشتهم، المتشوِّف إلى الوقوف على كنه أخلاقهم، واستطلاع طِلع عوائدهم؛ من إعادة النظر فيما جاء عنهم لذلك العهد، والتنقيب عن تتمتهِ في تضاعيف الأخبار، وغضون الأحاديث التي لا يكاد يخلو منها مصنَّف في اللغة، أو مؤلَّف في الأدب، والاستعانة على تحقيق موضع الشاهد فيها من استِقراء دواوين الشعراء في الجاهلية وبدء الإسلام . وهي على عزَّتها وتعذُّر منالها، تكاد تكون فيما عدا اللغة والأمثال أوحد الآثار التي تمثل تلك الأعصار. ولا يخفى ما يقتضي مثل هذا المطلب الشاق من الجلد الرابط، وما يستغرقه من الوقت الطويل، مما لا يضطلع بهِ الواحد، ولا يتسنى بلوغه لكل طالب.

وإنما جاء هذا النقص لاشتغال العرب في القرون الأولى من الإسلام بجهاد المشركين وفتح الفتوحات، وانصراف الرواة منهم عن رواية الأخبار الجاهلية إلى استقصاء الأحاديث الإسلامية، حتى إذا استقر فيهم المُلْك، ودانت لهم الأمصار، وأخلدوا إلى الحضارة؛ كان أول ما دفعتهم إليه الحاجة تدوين بعض ما يستعينون بهِ على تفهم السنة والحديث، وأِحكام تلاوة القرآن، كما يشهد بذلك ما نُقل عن أصل وضع فنَّي الصرف والنحو؛ ولذلك كانت أكثر تآليفهم في سائر العلوم لا تتجاوز في بدء أمرها حد الكفاية، ولا تتعدى الغرض الذي دعاهم إلى وضعها؛ لأنفتهم من انتحال غير العلوم الدينية، واطِّراحهم كل ما عداها مما لا يرجع إليها أو لا يعين عليها؛ نظرًا لقرب عهدهم بالبداوة، واشتغالهم بتولي الرئاسة وتقلد الأعمال السلطانية، حتى كان أكثر حَمَلَة العلم بينهم من العجم، كما نبَّه على ذلك ابن خلدون في مقدمتهِ.

ولهذه الأسباب لم أطمع، حين أقبلت على البحث عن حالة الأنثى في الجاهلية، أن أفي هذا الموضوع حقهُ، ولا أن أحيط بالمسألة من جميع أطرافها؛ لغياب ما يمثل تلك الحالة بتمامها، لا سيما وأن الكلام فيها نسجٌ على غير منوال وطبعٌ على غير مثال؛ إذ لا أعلم فيما بلغني أن قد سبق لأحد من أهل اللسان العربي كلام في هذا الصدد أو استقصاء في البحث عنهُ؛ ولذلك اضطررت أن أرجع في كثير مما ذكرتهُ إلى أبيات من الشعر، أصبتها بعد طويل الجهد متفرقةً في أقوال شتى لشعراء مختلفين، أوردتها شواهد بما وصفتهُ جريًا على المشترط في أصول البحث من الاحتجاج لكل قول بما يثبت صحتهُ وينفي عنهُ شبهة الوضع، ولم أقتصر منها على ما كان جاهليّا بحتًا، بل نقلت أحيانًا من شعر المخضرمين وأهل الطبقة الأولى من المحدثين ما أصبت الشاهد فيهِ؛ إذ كانت الأخلاق والعوائد لذلك العهد لم تحل بعد بتمامها عما كانت عليهِ في الجاهلية، إلا ما نسخهُ الشرع أو حظرهُ الدين.

ولست أدَّعي بذلك أن ما حكيتهُ هو تمثيل الواقع وإصابة السداد؛ فرُبَّ رأيٍ تخيل لي أنهُ هو الراجح، والأرجح غيرهُ .وإنما حكمت بحسب ما ثبت لي من الظاهر ودلتني عليهِ القرائن، وعلى قدر ما اجتمع عندي من الشواهد التي حصلتها مما تهيأ لي مطالعتهُ من المصنفات التي تكاد تنحصر في شرح الحماسة للتبريزي، وجزء من العقد الفريد لابن عبد ربهِ، وبعض صفحات من كتاب الأغاني للأصبهاني. ولا ريب أنهُ إذا تسنى لأحد من ذوي الخبرة والاطِّلاع استكمال مثل هذه المطالعات واستقراء أشباه هذه الشواهد في مظانها؛ يظفر منها بما يكون حكاية الصحيح وفصل الخطاب، وينجلي البحث بعدها بما لا يذكر معهُ ما اشتملت عليهِ هذه العجالة القاصرة.

معلوم أن العرب في جاهليتهم كانوا أكثرهم أهل بادية؛ معاشهم من القيام على الإبل يغتذون بألبانها، ويقتاتون بلحومها، ويكتسون بأوبارها، ويتخذونها ركائب يقطعون عليها مجاهل القفار، فكانت لذلك مخصَّصة عندهم بمزيد العناية، يتخيرون لها أطيب الأرض بقعةً، وأكثرها عشبًا، ويتتبعون لأجْلها مواقع الغيث على حسب اختلاف الفصول، فلا يزالون دَهْرَهُم في حلٍّ وترحال يطوفون الآفاق طلبًا للمرعى وارتيادًا للماء. غير أنهم كثيرًا ما كانوا يصابون بالقحط ويحتبس عنهم المطر، فيهلكون هم ومواشيهم جوعًا، أو تدفعهم الحاجة أو الطمع إلى الإغارة على من جاورهم فيقطعون السابلة، ويغزو بعضهم بعضًا فينهبون ويَسبُون، وربما أصاب أحدهم الفتاة العذراء أو المتزوجة أمَّ البنين فيحسبها غنيمةً باردة كسبها برمحهِ، ويختصها لنفسهِ دون تحرُّج ولا تورُّع، وربما سُبيت منهُ فيغتصبها غيرهُ، فلا تزال تنتقل من مالك إلى آخر إلى أن يتيسر لأهلها استرجاعها، فتعود إلى منزلها الأول وقد لزمها من العار ما يبقى سبةً لذويها مدى الدهر. وقد كانت السبيَّة لمعرفتها بمقدار الذل الذي يلحقها من امتلاكها بالسبي، وأنفتها من تعيير أهل مولاها ودعائهم إياها بالأمة؛ تتحين الفرص لمفارقتهِ وتعمل على الفرار من يديهِ، لا يثبطها عن ذلك طول صحبتها

إياهُ مع إحسانهِ إليها، ولا يثني من عزمها ما يصلها بهِ من علاقة الولد، كما ذكر أبو عمرو الشيباني عن سلمى امرأة عروة بن الورد، وقد كان أصابها بكرًا من بني كنانة، وأعتقها وتزوجها واتخذها لنفسهِ، فمكثت عندهُ بضع عشرة سنةً، وولدت لهُ أولادًا، وهو لا يشك أنها أرغب الناس فيهِ، وهي تقول لهُ: لو حججت بي فأمرُ على أهلي وأراهم. فحجَّ بها، ثم أتى المدينة، فلما همَّ أن يعود بها قالت سلمى لقومها: تعالوا إليه وأخبروهُ أنكم تستحيون أن تكون امرأةٌ منكم معروفةُ النسب صحيحتُهُ سبيةً وافتدوني منهُ فإنهُ لا يرى أني أفارقهُ. فأتوهُ وسقوهُ الشراب فلما ثمل قالوا لهُ: فادِنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا معروفة، وإن علينا سبةً أن تكون سبيةً، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إلينا. فامتنع ثم اشترط عليهم أن يخيروها، فاختارت أهلها ثم أقبلت عليهِ فقالت: يا عروة، أما إني أقول فيك، وإن فارقتُك، الحقَّ، والله ما أعلم امرأةً من العرب ألقت سترها على بعلٍ خير منك، وأغضَّ طرفًا وأقل فحشًا وأجود يدًا وأحمى لحقيقةٍ، وما مر عليَّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيهِ أحب إليَّ من الحياة بين قومك؛ لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أَمَة عروة كذا وكذا إلا سمعتهُ، ووالله لا أنظر في وجه غطفانية أبدًا، فارجع إلى ولدك راشدًا، وأحسن إليهم .

ولهذين السببين، أي خوف العار وخوف الفقر، كان بعض العرب يئدون بناتهم، لا يفعل ذلك منهم عابد الوثن فقط، بل المتنصر أحيانًا، كما نُقل عن عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل زير النساء أنهُ لما وُلدت لهُ ابنتهُ ليلى أمر بدفنها، ثم بدا لهُ فاستحياها. وذكر عن قيس بن عاصم أنهُ وأد بيدهِ بضع عشرة ابنةً لهُ قال : وما رحمت منهنَّ إلا واحدة، ولدتها أمها وأنا في سفر، ودفعتْها إلى أخوالها، فلما قدمت وسألت عن الحمل، أخبرت أنها وُلدت ميتًا، ومضت سنون حتى ترعرعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتها قد ضفرت لها شعرها وزينتها وألبستها الحلي، فقلت: من هذه الصبية فقد أعجبني حسنها؟ فبكت وقالت: هذه ابنتك. فأمسكت عنها حتى اشتغلت أمها فأخرجتُها وحفرت حفرة وجعلتها فيها، **وهي تقول: يا أبتِ أتغطيني بالتراب؟ !حتى واريتها وانقطع صوتها**.

واستمر الوأد جاريًا عند العرب إلى أن قام زيد بن عمرو النصراني، فجعل ينهي عنهُ، وتبعهُ صعصعة بن ناجية جد الفرزدق، فأخذ يطوف في القبائل يشتري الموءودة بناقتين وجمل، يشتري حياتها لا رقَّها، وظل كذلك إلى أن جاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة. ونظرًا لتأصل هذه العادة القبيحة في نفوسهم وتعارفهم بها، كان الوالد إذا أدركتهُ الشفقة على ابنتهِ وأحب استحياءها، يجهد بإخفائها من الناس لئلا يفطن لها أحد، مثلما فعل عصيم بن مروان بابنتهِ نضيرة أم حصن بن حُذَيفة، فيما حكاهُ أبو محمد الأعرابي ولم يكن لهُ ولد غيرها، فلما وُلدت لهُ ورآها انتشرت نفسهُ عليها ورقَّ لها، وقال لأمها: استرضعيها وأخفيها من الناس.

ومع ذلك، فلم يكن العرب بأسرهم على هذا المنوال يئدون بناتهم، فإن عددًا منهم ليس بالقليل كانوا يستحيونهنَّ، غير أنهم كلهم قاطبةً كانوا يكرهونهنَّ ويرون ولادتهنَّ مصيبةً عليهم؛ أنفةً من العار الذي قد يلزم عنهنَّ، وهربًا من مئونة تربيتهنَّ. وقد سئل أحدهم عن ولدهِ فقيل لهُ :كم ولدك؟ فقال: قليل خبيث. فقيل لهُ: كيف؟ قال :لا أقلَّ من واحد، ولا أخبث من أنثى.

وقد توارث هذه الكراهة الخلفُ عن السلف، حتى إنهُ لما أراد بعض الإسلاميين أن يهنيء بعض الوزراء قديمًا بابنةٍ وُلدت لهُ احتاج أن يذكر، تسليةً لهُ، ما في السماء والأرض وما بينهما من الإناث، وهذا نص كتابهِ أوردهُ تفكهةً ليعلم منهُ كم كانت الأنثى مُبغَّضةً إلى والديها. قال: أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، المبشرة بإخوة يتسابقون، ونجباء يتلاحقون. والله يعرّفك البركة في مطلعها، والسعادة بموقعها، فادَّرع اغتباطًا، واستأنف نشاطًا؛ فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية. والسماء مؤنثة: وقد زُينت بالكواكب، وحليت بالنجوم الثواقب. والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان. والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا تحرك الأنام . والجنة مؤنثة وبها وُعد المتقون، وفيها تنعم المرسلون. إلى آخر ما هنالك مما هو بالتعزية أشبه منهُ بالتهنئة. وأما التهنئة الصحيحة فإنما كانت تكون عندهم إذا توفيت الأنثى، وأقل ما كانوا يكتبونهُ في التهنئة بوفاتها قولهم: ستر العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات، وتقديم الحُرَم من النعم، وغير ذلك مما لا أستقصي في ذكرهِ.

على أن بعض العرب كانوا في عكس من سبق، يحبون بناتهنَّ ويبذلون في إكرامهنَّ غاية جهدهم، دون أن يمنعهم ما كانوا يتقونهُ منهنَّ من الفضيحة وثقل المئونة عن توفيتهنَّ حقهنَّ من العناية والتربية، بحيث كانوا يجزعون لأقل أذًى يحل بهنَّ .قال حطَّان بن المعلَّى:

لولا بنيات كزغب القطا *** رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع *** في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا *** أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم*** لامتنعت عيني عن الغمض

وقد بقيت آثار ذلك كلهِ إلى اليوم كما هو مشهور في هذه الأقطار.

وقد نقبت كثيرًا فيما بين يديَّ لأجد ما أصف بهِ حالة الأنثى في بيتها إذا ترعرعت وما كان يستغرق وقتها من أشغال المنزل ومهمات تدبيرهِ؛ فلم أظفر من ذلك بالبلاغ؛ فإن البيت كلهُ كان في الغالب قائمًا في طراف أو خباءٍ، يتولينَ فيهِ الردن، أي الغزل، ومنهُ اشتقاق رُدَينة من أسمائهنَّ، أو ينسجنَ الصوف والوبر والشعر ونحوهُ، وقد يدبغنَ الأديم ويرملنَ الحصير. ومهمات المنزل بأسرهِ منحصرة في تهيئة الطعام، فيما لا

يكاد يخرج عن اللبن الحليب والأقِط والتمر والدقيق والعسل والزبد والسمن والزيت والشحم، شأن سائر سكان القفار الباقين على نشأتهم الطبيعية؛ ولذلك إذا راجعنا مآكل العرب وحلوياتهم لم نرها تتعدَّى هذه الأشياء، تُفرَد أو تُخلَط بعضها ببعض، وأما اللحم فغاية إحضارهِ أن يشوى على الجمر أو على الحصى، أو يدفن في الرماد، أو يكون جيد النضج بالغهُ أو قليلهُ؛ مما يرجع إلى حالة واحدة ولا يتطلب كبير عناء؛ ولذلك كان بعض النساء يخرجنَ راعيات يقضينَ يومهنَّ في القيام على الإبل أو الشياه، وبعضهنَّ بائعات كما نُقل عن ذات النحيين في المثل المشهور، وأكثر ما كنَّ يبعنَ العسل والسمن والتمر والعطر، يطفنَ بهِ الأحياء يستبدلنهُ أحيانًا بالشحم، أو يلزمن بهِ مكانهنَّ فيأتيهنَّ الرجال يتطيبون بهِ لديهنَّ، وربما تعرضنَ للركبان بالأدَم والبُرَم؛ أي الجلود والقدور. ولا يبعد أن يكون هنالك صنائع أخُرى كنَّ يتعاطينها مما لا يكاد يتعدى حاجة ساكن القفر، مثلما جاء عن رُدينة أنها كانت في خط هجر هي وزوجها سمهر يقوِّمان الرماح؛ ولذلك نسبت الرماح إليهما، فقيل رمح رديني ورمح سمهري. ويلحق بهذا ما كان يتعاطاهُ بعضهنَّ من فنون الكهانة، كالضرب بالحصى، مما يشاهد مثلهُ في بدويات اليوم، وكزجر الطير أو العيافة، وهي أن ترمي الطائر بحصاة أو أن تصيح بهِ، فإن طار عن اليمين استسعدت بهِ، وإن طار عن اليسار تشاءمت بهِ، تسمى العرب الأول سانحًا، والثاني بارحًا، وكانوا يعتقدون بصحة هذه الخرافات، وكنَّ فيما عدا التنجيم يتَكلفنَ الرقي والنفث في العقد من فنون السحر، وهو أن يعقدنَ عُقَدًا في خيوط أو في وتر وينفثنَ عليها؛ أي ينفخنَ مع ريقٍ، وقد استعاذ منهنَّ القرآن فقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ* وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾. على أن كثيرًا من هذا الذي تقدم كان تقوم بهِ الولائد والإماء من الرقيق، وهن وقتئذٍ يُعدَدنَ بالألوف، فكنَّ يُستخدَمنَ في عامة حاجات المعيشة: من رعي الإبل خاصةً، وخدمة المنزل، وتعاطي المهن، وسائر ما تتطلبهُ لوازم الحياة في القفر مما كانت تترفع عنهُ حرائر النساء أو يأنفن من مزاولتهِ لما يترتب عليهِ عندهنَّ من العار والغضاضة في الشرف. وإنما ذكر النساء؛ لأنهم يأنفون من الصناعات ويعلمونها العبيد والإماء وحرائر النساء، إذا لم يكنَّ في غاية بعيدة من الشرف؛ ومن أظهر الدلائل على هذه الأنفة من الامتهان والتبذل قولهم في المثل: تجوع الحرة ولا تأكل بثديها.

ومما يلحق بذلك الغناء، فإنهُ في الجاهلية كان من خصائص الإماء، وتسمى عندهم الأمة المغنية بالقينة والكرينة، وأول من غنَّى من الإماء، فيما زعموا، جاريتان كانتا لمعاوية بن بكر من قبيلة عاد الهالكة، وهما المدعوتان في الأخبار بالجرادتين. ولا يبعد أيضًا أن تكون الأمَة هي التي كانت تتولى خياطة الثياب وإصلاحها بنفسها، أو تسعفها في ذلك مولاتها، إذا كان المخيط لها أو لأسُرتها أو لم تكن عريقة في الشرف، وكانت النساء لذلك العهد أو بعضهنَّ يحتفلنَ بملابسهنَّ، ولا يقتصرنَ على لبس القطن والصوف

والوبر، بل يتشحنَ أحيانًا بالديباج والحرير حسب يسارهنَّ . وأقل من ذلك لبسهنَّ الثياب الموشاة بالذهب، قال سلمى بن ربيعة:

والبيض يرفلن كالدمى*** في الريط والمذهب المصون

يعني بالبيض النساء، يتبخترنَ في الريط وهي الملاءة الواسعة، والمذهب المصون يراد بهِ الثياب الفاخرة المطرزة بالذهب، على أنهنَّ كنَّ في أوقات الخلوة يقتصرنَ على لبس الصدار (ثوب يغطى به الصدر (المعجم العربي الأساسي)) والمجول والإتب (الإتب: الثوب القصير إلى نصف الساق (المعجم الوجيز)) تحت دروعهنَّ (قميص المرأة: (المعجم العربي الأساسي))، وهي كما ذكرهُ الثعالبي قُمُصٌ متقاربة الكيفية في القصر واللطافة وعدم الأكمام، ولا بد أن ذلك كان عامًا لهنَّ، حتى قيل في المثل :كل ذات صدار خالة. وأما الزيُّ الذي كنَّ يتخذنهُ في ملابسهنَّ فالظاهر أنهُ كان لا يخلو من بعض التأنق، ومن أغرب الشواهد الدالة على مبلغهِ عندهنَّ هذه الوسادة التي تضعها نساء الفرنجة ونساؤنا تحت أثوابهنَّ في أسفل الخصور لتعظيم ما خلف الظهور، فإنها ليست من إيجاد مخترِعات الزي في أوروبا، بل هي من معلومات نساء العرب في سالف الدهر، وتسمى عندهنَّ بالعُظَّامة والحشيَّة والرِّفاعة، وإذا قرأنا في تفسيرها قول أرباب اللغة علمنا أنها هي هي ما نراهُ اليوم في زيِّ المرأة المتمدنة؛ "العُظَّامة ثوب كالوسادة تعظِّم بهِ المرأة عجيزتها"، ومن ذلك أيضًا عادة إطالة الذيول وجرها تبخترًا وخيلاء، وأشعار العرب طافحة بذكرها، فلا حاجة إلى النص عليها في بيت بعينهِ. وأشد من اهتمامهنَّ بالملبس حرصهنَّ على التحلي، وبلغ من شغفهنَّ بهِ أنهنَّ لم يقتصرنَ على الحلي الواحد في الموضع الخاص بهِ، بل ربما عدَّدنهُ في كل قسم منهُ، كاليد مثلًا؛ فإنهنَّ فيما عدا الخواتم في الأصابع اتخذنَ فيها للمعصم سوارًا، وللساعد جبيرةً، وللعضد دملجًا. وكالرِّجال فقد ذكر الثعالبي فضلًا عن الخلخال والخدمة لها الفَتَخ لأصابعها، وقال تلبسها نساء العرب؛ وكذلك الأذن، فقد جاء الشنف لما يعلق في أعلاها والقرط لأسفلها، ويظهر أن السوار لم تكن تلبسهُ إلا الحرائر من النساء دون الإماء، بدليل قول حاتم الطائي لما لطمتهُ العنزية حين فصد لها البعير: لو ذات سوار لطمتني! ومن لوازم التحلي ولواحقهِ التزينُ والتبرج فيما يتناولهُ من التطيب والاختضاب والوشم وترجيل الشعر وتزجيج الحواجب والتكحل وما أشبه، وأكثر ما كان الوشم في ظاهر الكف والمعصم وربما وشمت الحمقاء غير ذلك ليكون أحسن لها، كما ذكروا في تفسير المثل: هو أعظم في نفسهِ من المتَّشمة. وأما الشعر فيستفاد من وصف امرئ القيس للفرع في معلقتهِ المشهورة أنهنَّ كنَّ إذا أردنَ ترجيلهُ تفننَّ في ضفرهِ وتهيئتهِ، وخالفنَ فيهِ بين تثنيةٍ وإرسال ونظرًا لما يترتب على الفرع الطويل من الحسن كنَّ إذا قصر شعر إحداهنَّ تصله بغيرهِ ليكون أتم لها، وتسمى من كانت كذلك بالواصلة والطالبة لهُ بالمستوصلة، وقد لعنهما كلتيهما الرسولُ كما لعن الواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنصمة، ومعنى النامصة الناتفة لشعرها كما تفعل بعض النساء اليوم، ومنهُ قول الراجز:

ياليتها قد لبست وصواصا*** ونمَّصت حاجبها تنماصا

أراد بتنماص الحاجب نتف ما نبت فيه وراءَ القوس من الشعر، وكانت العرب تحب الحواجب المزججة أي المدققة المطولة، وأما صبغها المعروف بالخطوط فلم تكن تعرفهُ البدويات، وإنما هو من تبرج الحضَريات. ولا حاجة إلى التنبيه على أن هذا الذي تقدم من حرص المرأة على التزين والتحلي كان يُشاهد في غير المرأة الثاكل أو الفاقد؛ فإن حداد هذه كان يشغلها عن كل زهو وتبرج؛ ولذلك عرَّفوا الحداد بكونهِ خاصةً ترك الزينة والخضاب، وإن كان في الواقع يتناول غير ذلك كلبس السُلُب السود، وهي ثياب المأتم، والمسوح وقد تعصب الحادُّ رأسها أيضًا بالسلاب، بل ربما تناول الحداد ما هو أشد من ترك الزينة؛ كحلق الشعر وتعليق النعلين أحيانا، كما ذُكر عن الخنساء أنها رؤيت بعد مقتل أخيها صخر تطوف بالبيت محلوقة الرأس وهي تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها، قال المبرَّد: وتأويل النعلين أن المرأة كانت إذا أصيبت بحميمٍ لها جعلت في يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها، وقصرُهُ الإصابة على الحميم فقط يدل على أنهُ إذا لم يكن المصاب بهِ كذلك نَدَبَتهُ المرأة بغير نعلين، واستعاضت عنهما بخرقة تمسكها بيدها وهي تنوح كما تصنع النوادب اليوم، وتسمى هذه الخرقة بالمئلاة. ومما اشتهر عنهنَّ البروز عند سماع النعيّ حاسرات بغير نقاب ، وخمش الوجه وقد تقدم شاهدهُ، وشق الجيب كما قال طرفة:

وإن مت فانعيني بما أنا أهله*** وشقي علي الجيب يا بنة معبد

وأقل منهُ تخريق الخمار. وأما مدة الحداد فلا يبعد أنها كانت تختلف باختلاف منزلة الفقيد أو نسبهِ، وقد جعلها لبيد حولًا كاملًا. ومما يتصل بالملبس التقنعُ والتنقب، وقد كان النقاب يستر الوجه إلى قصبة الأنف أو إلى المحجر فقط، بحيث كانت تُرى منهُ العين، ولعلهُ لم يكن في بدء الأمر إلا فضلة القناع تردُّها المرأة على شفتها كما يردُّ الرجل فضل عمامتهِ على فمهِ، بدليل إطلاق لفظ اللثام على كلا الردَّين، ثم ما لبث اللثام أن ارتفع إلى ما فوق الفم فكان لفامًا، ثم انتهى إلى الأنف فغشيهُ أو بعضهُ فكان نقابًا، وربما ضاق أيضًا حتى لا تبدو منهُ إلا العين فقط وهو البرقع والوصواص. وذكر أبو زيد في كتاب النوادر أنهُ قيل لأعرابي: ما تقول في نساء بني فلان؟ فقال: برْقِعْ وانظر.. يريد حسن أعينهنَّ. ومن هذا الترتيب يُستدل على أن النقاب كان في أول اتخاذِه كاللثام للرجال، ثم لما جعل أرباب الهوى لا يرون حسناء إلا تعشقوها ونظموا فيها الأبيات السائرة تحرز منهم النساء بالنقاب؛ سترًا لمحاسنهنَّ أن يبتذلها الوصف، فأصبح لذلك التنقب عادةً أوجبها التعفف والتصون. يشهد بذلك ما ذكر عن المتجردة امرأة النعمان ملك الحيرة حين سقط يومًا نصيفها، أي خمارها، فأبصرها النابغة الشاعر فبادرت واستترت بيدها وذراعها، فكادت ذراعها تستر وجهها لامتلائها وغلظها، فما لبث النابغة بعد هذه اللمحة اليسيرة أن نظم قصيدتهُ الدالية، وصف فيها المتجردة وصفًا نبَّه فيهِ على أكثر محاسنها حتى تجاوز إلى رُضابها، فقال فيهِ ما أوجب غضب النعمان عليهِ؛ ونُقل مثل

ذلك عن طرفة لما كان بين يدي عمرو بن هند يشرب وأَشرفت أختٌ للملك فرآها طرفة، فقال فيها بيتين من الشعر نقمهما عليهِ عمرو بن هند، وكان من بعض ما بعثهُ على الأمر بقتلهِ كما ذُكر في قصتهِ. ومما يدل على أن التنقب لذلك العهد كان تصونًا استئثار الحرائر بهِ دون الإماء، حتى كانت الحرة إذا خشيت السبي يومًا وأرادت أن تأمن على نفسها تلقي عنها النقاب وتبرز حاسرةً كالأمة ليظن أنها هي فلا يُتعرض لها .قال التبريزي في شرح قول معدي كرب:

وبدت لميس كأنها *** قمر السماء إذا تبدى

أي برزت هذه المرأة كاشفةً عن وجهها، وإنما فعلت كذلك إما للتشبه بالإماء حتى تأمن السباء، أو لما تداخلها من الرعب. على أن التنقب لم يكن عامًا لكل الحرائر على السواء ملازمًا لهنَّ في جميع أحوالهنَّ؛ فإن بعضهنَّ كنَّ لا ينتقبنَ من الرجل إذا كان غير شجاع تظاهرًا بالاحتقار لهُ أن يكون عاجزًا عن حماية الأعراض ومدافعة الأعداء، وقد نقل عن بني الحرث بن كعب خاصةً أنهُ إذا كان الرجل منهم جبانًا لم تختمر منهُ امرأة أبدًا، وكنَّ كلهنَّ جُمَع إذا فاجأهنَّ ما يذهلنَ لهُ من مصيبة أو حزن يبرزنَ حاسرات سافرات عن وجوههنَّ يلطمنها باكيات. ومثل ذلك كانت تفعل بعض النساء الحسان، فكنَّ في أكثر الأوقات يبرزنَ للنظار سافراتٍ عجبًا بجمالهنَّ أن يسترهُ قبح القناع. وقد عُرف ذلك منهنَّ حتى كانت المرأة إذا رؤيت حريصةً على التنقب والتستر حُكم عليها لأول وهلة أنها قبيحة المنظر، واعتُقد فيها أنها إنما تقنعت لتغرَّ الناظر إليها وتوهمهُ جمالها؛ ولذلك قيل في المثل: ترك القناع من ترك الخداع. وقد ذكر عمر بن أبي ربيعة عادة النساء الحسان في ترك التقنع، فقال من شعرٍ لهُ:

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت*** وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا

أي استخفَّها الحسن أن تستر وجهها بالقناع. قال التبريزي في شرح هذا البيت: وهكذا كانت نساء العرب تفعل إذا كانت جميلة. وقد ذكر مثل ذلك الشماخ وأبو النجم من الرُجَّاز، فقال الأول: أطارت من الحسن الرداء المحبَّرا .وقال الثاني: من كل غرَّاء سقوط البرقعِ. وعلى كلٍّ فأيًا كان السبب لم تكن النساء يبرزنَ حاسرات إلا وهنَّ حريصات على التعفف حرصهنَّ عليهِ وهنَّ منتقبات مستترات، كما قال في مثلهنَّ بعض واصفيهنَّ:

برزن عفافا واحتجبن تسترا*** وشيب بقول الحق منهن باطلا

فذو الحلم مرتاب وذو الجهل طامع*** وهن عن الفحشاء حيد نواكل

كواس عوار صامتات نواطق*** بعف الكلام باخلات بواذل

ومن هنا يُعلم أن النساء لم يكنَّ جميعًا يسترن بالنقاب استتارًا لا يكشفنَ فيهِ عن وجوههنَّ البتة، بل كان كثيرات منهنَّ يبرزنَ للرجال، ولا سيما الفتيات يراهنَّ الراغب في الزواج فيخطبهنَّ عن معرفة ومرأًى لا عن

شهادة ورواية، وقد بقي بعض هذه العادة إلى ما بعد الإسلام، فكان بعض النساء يبرزنَ للرجال يحدثنهم ويحدثونهنَّ، كما ذكر عن سَكينة بنت الحسن، وتسمى من كانت كذلك بَرْزة، وبعضهنَّ يجلسنَ لخطَّابهنَّ، كما صرح بذلك ابن عبد ربهِ في العقد الفريد فيما نقلهُ عن معبد بن خالد الجدلي أنهُ قال: خطبت امرأة من بني أسد في زمن زياد، وكان النساء يجلسنَ لخطَّابهنَّ، فجئت لأنظر إليها وكان بيني وبينها رواق، فدعت بجفنة من الثريد مكللة باللحم فأتت على آخرها وألقت العظام نقية، ثم دعت بقربةٍ صغيرة مملوءة لبنًا فشربتْهُ حتى أكفأَت القربة على وجهها، وقالت: يا جارية، ارفعي الستر. فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا شابَّةٌ جميلةٌ، فقالت لي: يا عبد الله، أنا أسدة من بني أسد وعلى جلد أسد، وهذا طعامي وشرابي، فإن أحببت أن تتقدم فتقدم، وإن أحببت أن تتأخر فتأخر. فقلت أستخير الله في أمري وأنظر. وخرجت ولم أعد. وأورد ابن عبد ربهِ حكايات أخُر في مثل هذا المعنى، بعضها أصرح في الدلالة، لا أنقلها لطولها فليطالعها من يشاء.

وعلى ذكر الخطبة والزواج فقد يظهر أن بعض فتيات الأعراب كنَّ يتزوجنَ في سنٍّ حدثٍ جدًّا، ومما لا يكاد يصدق ما وجدتهُ في رجزٍ لبعض النساء قالتهُ في ابنتها ردًّا على جارةٍ لها ولدت غلامًا .فقالت:

وما علي أن تكون جارية*** تغسل رأسي وتكون فالية

حتى إذا بلغت ثمانية*** زوجتها مروان أو معاوية

فإنَّ تزوُّج الفتاة في الثامنة من سنها مما ينكرهُ الطبع وتكاد تنكرهُ الطبيعة، ولعلهُ إنما كان يقع في الظاهر فقط ليُملك أمرها، ثم لا يُبتنى عليها إلا متى أدركت كما نُقل عن الرسول فيما ذكرهُ ابن عبد ربهِ من أنهُ تزوَّج عائشة في السادسة من سنها، وابتنى عليها في التاسعة. ولا يبعد أن تكون هذه العادة باقيةً إلى اليوم في بعض المدن الإسلامية، كما يؤخذ مما ذكرهُ نيبُهْر[1] في كتابه في وصف بلاد العرب، وهو أحد من زارها سنة ١٧٦٣، قال في معرض كلامه عن الجمع بين الزوجات "سمعت في فارس أن امرأة وضعت في الثالثة عشرة من سنها" وقال: "وفي هذه البلاد تُزوج البنات من التاسعة من أعمارهنَّ"، وذكر أيضًا في الجزء الثاني من كتابه هذا من بعض ما تختلف فيهِ أهل الجبال وأهل المدن: إن بنات اليمن يتزوجنَ في التاسعة أو العاشرة من سنيهنَّ، وأما بنات الجبال فيندر أن يتزوجنَ قبل الخامسة عشرة. ومهما يكن من مقدار العمر فلم تكن الفتاة تُزوَّج في الغالب إلا من كان غريبًا عنها لا تجمعها بهِ صلة معرفة أو صلة نسب؛ أما صلة المعرفة فلأنهم كانوا شديدي الغيرة على أعراض النساء أن يلحق بهنَّ ما يُعرِّضنَ من أجلهِ للظنة، حتى لقد كانوا يمنعون زواج الفتاة لمجرد سلامٍ يسلمهُ عليها الرجل، فضلًا عما إذا كان مشتهرًا بهواها. وأما صلة النسب

[1] M. Niebuhr Description de l'Arabie

فلأن العرب كانت تعتقد أن الرجل إذا تزوَّج قريبةً لهُ جاء ولدهُ ضاويًا نحيفًا. ولذلك جاء في الحديث: اغتربوا لا تُضْوُوا، أي تزوَّجوا في الأجنبيات ولا تتزوَّجوا في العمومة. ولكنهم في ضد ذلك كانوا يتزوجون أحيانًا بنساء آبائهم، كما ذكر الأصبهاني في آمنة بنت أبان أنهُ لما مات عنها أمية بن عبد شمس تزوجها من بعدهِ ابنهُ أبو عمر. وقال: وكان هذا نكاحًا تنكحهُ الجاهلية فأنزل الله تعالى تحريمهُ قال :﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فسمي نكاح المقت.

وقد يتوهم كثير من الناس أن النساء في ذلك العهد كنَّ يتزوجنَ من يختارهُ لهن ذووهنَّ ويُكرَهنَ على الاقتران بمن لا يعرفنهُ أو لا يرغبنَ فيهِ. وهذا، وإن كان يجري بعضهُ أحيانًا، لا يصح في الإطلاق، بل كانت الأنثى مخيرةً في الغالب تختار من تشاء، وتتزوج من تعرف إذا لم يكن ثمَّ ما يمنع زواجها كما سبق مما يخشى منهُ على طيب الذكر، أو يبعث تحدُّث الناس. وقد جاء على ذلك شواهد كثيرة، أجتزئ منها بما نقلوهُ عن الخنساء الشاعرة من أنها كانت تهنأ بعيرًا لها، ودريد بن الصمة يراها وهي لا تشعر بهِ، فأعجبتهُ فانصرف فلما أصبح غدا على أبيها، فخطبها إليهِ، فقال لهُ أبوها :مرحبًا بك أنك الكريم لا يُطعن في حسبهِ، والسيد لا يُرَدُّ في حاجته، ولكن لهذه الفتاة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا أذكرك لها. ثم دخل إليها وقال لها :يا خنساء، أتاكِ فارس هوازن وسيد بني جشم يخطبكِ وهو من تعلمين. فقالت: يا أبتِ أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ومتزوجة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد. فلم يجبها أبوها بشيءٍ مع رغبته في تزويجها لدريد، وخرج إليهِ، وقال: يا أبا قرة قد امتنعت، ولعلها أن تجيب فيما بعد. وفي هذا الشاهد الذي نقلتهُ عن الخنساء شاهدٌ آخر بما تقدم ذكرهُ من أن بعض النساء كنَّ إذا أردنَ يخرجنَ حاسرات بلا نقاب، ولذلك قال دُرَيد: متبذلًا تبدو محاسنهُ. ومما يزيد في فضل هذه المشيئة التي تركها العرب لفتياتهم في اختيار الزوج أن النساء في الجاهلية أو بعضهنَّ كنَّ يطلِّقنَ رجالهنَّ، وكان طلاقهنَّ أنهنَّ إن كنَّ في بيت من شعر حوَّلن الخباء إن كان بابهُ قِبل المشرق حولنهُ قِبل المغرب، وإن كان بابهُ قِبل اليمن حولنهُ قِبل الشام، فإذا رأى ذلك الرجلُ علم أنها قد طلقتهُ، فلم يأتها، كما حدث لحاتم الطائي مع امرأتهِ ماوية مثلما هو مذكور في قصتهِ.

وقد قيل في حاتم هذا إنهُ كان نصرانيًا، فإن صح هذا القول كان في تطليق امرأتهِ لهُ دليل على أن الطلاق كان مشتركًا بين النصارى وعابدي الوثن، وهذا الموضع مهم للمشتغل بتاريخ النصرانية في الجاهلية والإسلام، فليُنتبه إليهِ. ونظيرهُ ما ذكر من تطليق امرئ القيس لامرأتهِ أم جندب حين حكمت لعلقمة الفحل عليهِ عندما تحاكما إليها فيما قالاهُ من الشعر، وفي هذه القدرة التي كانت للمرأة على تطليق الرجل دليلٌ ناطق بمقدار منزلتها في الجاهلية، بحيث كان لها من الحقوق قريبٌ مما كان للرجل؛ تطلقهُ إن أنكرت منهُ سوء معاملةٍ لها، أو تحاملٍ عليها، أو رأتهُ مهملًا لمكانها مقبلًا على ما تكره منهُ، وفي هذا من العدل والإنصاف ما لا يخفى على أحد.

ولم يكن الجمال في المرأة الجاهلية هو وحدهُ المعين لها على الزواج، فإن كثيرين من الرجال كانوا يؤثرون فيها جمال النفس وكمال الخُلق وشرف النسب وكرم العنصر ودهاء الرأي وذكاء الفهم سواءٌ كانت مع ذلك حسناء أو قبيحة، وأكثر ما كانوا يلتمسون فيها شهرة الأسم، وتطاير الصيت، فرب فتاة كانت خاملة الذكر مجهولة المكان متناهية الفقر لا يأتيها راغب ولا يخطبها خاطب، ثم اتُفق ما نوَّه باسمها ونبَّه على منزلتها من شعرٍ قيل فيها أو في مدح أسرتها، فما لبثت حتى أقبل عليها الطلاب من كل قبيلة يبذلون لها من المهر ما أغنى ذويها، وأدرَّ عليهم أخلاف الرزق، كما رُوي عن المحلِّق الكلابي أنهُ كان لهُ ثلاث أخوات قد كسدن عليهِ، وكان مع ذلك فقيرًا سيء الحال، فاتفق أن مر ذات يوم بهِ الأعشى الشاعر، فبادر وبعث إليهِ بالضيافة وأكرمهُ، فما كان بعد قليل حتى قال الأعشى شعرًا سار وشاع في العرب، فما أتت على المحلق سنةٌ حتى زوَّج أخواتهِ الثلاث؛ كل واحدةٍ على مائة ناقة وأيسر وشَرف. وحكى صاحب الأغاني أيضًا أن امرأة جاءت إلى الأعشى نفسهِ، وقالت لهُ: إن لي بناتٍ قد كسدنَ عليَّ فشبِّب بواحدة منهنَّ لعلها أن تنفق. فشبب بواحدةٍ منهنَّ، فما شعر الأعشى إلا بناقة بُعثت إليهِ، فقال :ما هذا؟ قالوا: زُوِّجت فلانة. فشبب بالأخرى، فأتاهُ مثل ذلك، فسأل عنها فقيل: زُوجت .فما زال يشبب بواحدة فواحدة منهنَّ حتى زُوِّجنَ جميعًا. وأما الذكاء والفطنة فما من أحد يجهل قصة شنَّ وما ألزم بهِ نفسهُ من أن لا يتزوج إلا بامرأة تضاهيهِ في الدهاء، فكان يجوب البلاد في ارتيادِ طلبتهِ إلى أن صادف في بعض أسفاره أبا طبقة، فسألهُ أسئلةً لم يفطن لمغزاها، حتى فسرتها لهُ ابنتهُ طبقة تفسيرًا حمل شنّا على خطبتها وتزوجها، ونظير ذلك ما يحكى عن امرئ القيس من أنهُ كان قد أقسم ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين، فجعل يخطب النساء فإذا سألهنَّ عن هذا قلنَ أربعة عشر، فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً لهُ صغيرة فأعجبتهُ، فقال لها: يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنان؟ فقالت: أما ثمانية فأطباءُ (الطبي: حلمة الضرع للحيوان أو الضرع نفسه، والجمع أطباء، (المعجم الوجيز)) الكلبة، وأما أربعة فأخلاف (ضرع الناقة، (المعجم الوجيز)) الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها، فزوجهُ إياها واتفق لهُ معها قبل الزواج ما يدل على شدة ذكائها ووفرة عقلها مما لا أنقلهُ لطولهِ. وفي هذه الحكاية دليل أيضًا على ما سبق التنبيه عليهِ من أن بعض الفتيات كنَّ يتزوجنَ في سن حدث، وهو قول صاحب الرواية عن الرجل الذي لقيهُ امرؤ القيس أنهُ كان يحمل ابنةً لهُ صغيرة، ولم يمنعهُ صغرها مع ذلك من تزويجها.

سورة التكوير

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في كتابه: **تفسير القرآن العظيم**

سورة التكوير وهي مكية:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عبد الله بن بحير القاص أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعاني أخبره أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"، و"وإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ"، و" إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**". وهكذا رواه الترمذي، عن العباس بن عبد العظيم العنبري، عن عبد الرزاق. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس[٢]:{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} يعني: أظلمت. وقال العوفي عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحَلّت وذَهَبت،

---

[٢] **عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم**، صحابي جليل، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، **حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير وترجمان القرآن**، ولد ببني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الدعاء **لابن عباس** فدعا أن يملأ الله جوفه عِلماً وأن يجعله صالحاً. وكان يدنيه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول: "**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**". وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم و**ابن عباس** لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة من العمر، وقد روي له ١٦٦٠ حديثا. كان **عبد الله بن عباس** مقدما عند عثمان بن عفان، وأبو بكر الصديق، ثم جعله علي بن أبي طالب واليا على البصرة. وولاه عثمان إمامة الحج سنة خمس وثلاثين من الهجره لما حُصِرَ فى بيته فرجع القوم يتحدثون عن علمه وفقهه وأنه أقرب الناس إتباعاً لسنة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وممن أقر له بذلك بعض أزواج النبى ولما عاد من الحج وجد أن عثمان قد قُتل رضى الله عنه ولما بُيِعَ لِعَلى بالخلافه أراد أن يستعمله على الشام فاستعفاه وقال يا أمير المؤمنين بل إجعل معاوية بن أبي سفيان عليهم ثم أمّرهُ على البصره فكان أهلها يُغبطون بإمرته عليهم رضى الله عنهم أجمعين. (نقلا عن موسوعة ويكيبيديا العالمية)

وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبير:{كُوِّرَتْ} غُوّرت. وقال الربيع بن خُثَيم:{كُوِّرَتْ} يعني: رُمي بها. وقال أبو صالح:{كُوِّرَتْ} ألقيت، وعنه أيضا: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير: **والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جَمعُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وهو لفها على الرأس، وكتكوير الكاره، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله:{ كُوِّرَتْ } جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها**. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن شيخ من بَجِيلة، عن ابن عباس:{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ريحا دبورًا فتضرمها نارا، وكذا قال عامر الشعبي، ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن ابن يزيد بن أبي مريم، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قول الله:{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال: "**كورت في جهنم**". ثم قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الداناجُ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الشمس والقمر يكوران يوم القيامة". انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في كتاب "بدء الخلق"، وكان جديرًا أن يذكره هاهنا أو يكرره، كما هي عادته في أمثاله! وقد رواه البزار فَجَوّد إيراده فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد، مسجد الكوفة، وجاء الحسن فجلس إليه فَحدّث قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة". فقال الحسن: **وما ذنبهما؟** فقال: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: أحسبه قال: وما ذنبهما. ثم قال: لا يُروى عن أبي هُرَيرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث. وقوله:{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي: انتثرت، كما قال تعالى:{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}[الانفطار: ٢]، وأصل الانكدار: الانصباب. قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض:{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}قال:اختلطت،{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}قال: أهملها أهلها،{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو

نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. رواه ابن جرير، وهذا لفظه، وابن أبي حاتم، ببعضه، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثَيم، والحسن البصري، وأبو صالح، وحماد بن أبي سليمان، والضحاك في قوله:{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}أي: تناثرت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}أي: تغيرت. وقوله:{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعا صفصفا. وقوله:{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}قال عكرمة، ومجاهد: عشار الإبل، قال مجاهد:{عُطِّلَت} تركت وسُيّبت، وقال أبي بن كعب والضحاك: أهملها أهلها؛ وقال الربيع بن خُثَيم لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها، وقال الضحاك: تركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وَضَلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدها عُشَراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها. وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها. وقد قيل في العشار إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا. وقد قيل إنها الأرض التي تُعشَّر. وقيل إنها الديار التي كانت تُسكن تُعَطَّل لذهاب أهلها. حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه "التذكرة"، **ورجح أنها الإبل**، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، والله أعلم.

وقوله:{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}أي: جُمعت. كما قال تعالى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[الأنعام : ٣٨]. قال ابن عباس: يُحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم، وكذا قال الربيع بن خُثَيم والسّديّ، وغير واحد. وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق [موافية] فيقضي الله فيها ما يشاء. وقال عكرمة: حشرها: موتها. وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا عباد بن العوام، أخبرنا حُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله:{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: حَشرُ البهائم: موتها، وحشر كل شيء الموت غيره الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكِيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي يعلى، عن الربيع بن خُثَيم:{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: أتى عليها أمر الله. قال سفيان: قال أبي: فذكرته لعكرمة، فقال: قال ابن عباس: حشرها: موتها. وقد تقدم عن أبيّ بن كعب أنه قال:{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} اختلطت. قال ابن جرير: والأولى قَولُ من قال:{حُشِرَت} جُمعت، قال الله تعالى:{وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً}[ص: ١٩]، أي: مجموعة. وقوله:{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَية، عن

داود، عن سعيد بن المسيب قال: قال علي رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم ؟ قال: **البحر**. فقال: ما أراه إلا صادقا. {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}[الطور: ٦]، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [مخففة]. وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الدّبور فتسعرها، وتصير نارًا تأجج (الدبور: رياح تهب في الجزيرة العربية من المغرب وتقابل القبول التي هي ريح الصبا (المعجم الوجيز))، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو طاهر، حدثني عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط- شيخٌ صَالِح يُشبهُ مالكَ بن أنس- عن معاوية بن سعيد قال: إن هذا البحر بركة، يعني بحر الرُّوم، وسط الأرض، والأنهار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر. **وهذا أثر غريب عجيب**. وفي سنن أبي داود: "لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر نارا، وتحت النار بحرا" الحديث. وقال مجاهد، والحسن بن مسلم:{سُجِّرَت} أوقدت. وقال الحسن: يبست. وقال الضحاك، وقتادة: غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضا:{سُجِّرَتْ} فجرت. وقال السدي: فتحت وسيرت. وقال الربيع بن خُثَيم {سُجِّرَتْ} فاضت. وقوله:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} أي: جُمع كل شكل إلى نظيره، كقوله:{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}[الصافات: ٢٢]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح البزار، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سِمَاك، عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} قال: الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله"، وذلك بأن الله عز وجل يقول:{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}[الواقعة: ٧ - ١٠]، قال: هم الضرباء. ثم رواه ابن أبي حاتم من طرق أخر ، عن سماك بن حرب ، عن النعمان بن بشير أن عُمَر خطب الناس فقرأ:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} فقال: تَزَوّجها: أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم، وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار. وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر عن قوله تعالى:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} فقال: يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس. وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ:{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}قال: الأمثال من الناس جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خُثَيم والحسن، وقتادة. واختاره ابن جرير، وهو الصحيح. قول آخر في قوله:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث [بن سوار]، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: يسيل واد من

أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاما، فينبت منه كل خلق بلي، من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض، قد نبتوا، ثم تُرسَل الأرواح فتزوج الأجساد، فذلك قول الله تعالى:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}، وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري أيضا في قوله:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} أي: زوجت بالأبدان. وقيل: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في "التذكرة".

وقوله:{**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**} هكذا قراءة الجمهور:{سُئِلَت}، **والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديدا لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا** ؟! وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ} أي: سألت. وكذا قال أبو الضحى: "سألت" أي: طالبت بدمها، وعن السدي، وقتادة، مثله. وقال أحمد: حدثنا إسحاق الأزرق، أخبرنا عوف، حدثتني حسناء ابنة معاوية الصُّرَيمية، عن عمها قال: قلت يا رسول الله، من في الجنة ؟ قال: "النبي في الجنة والشهيد في الجنة **والمولود في الجنة والموءودة في الجنة**". وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل يا رسول الله، من في الجنة؟ قال:"**الموءودة في الجنة**". هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن، ومنهم من قبله. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله عز وجل{ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ } قال ابن عباس: هي المدفونة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله:{ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ **[بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ]**} ، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال:"أعتق عن كل واحدة منهن رقبة". قال: يا رسول الله ، إني صاحب إبل ؟ قال:"فانحر عن كل واحدة منهن بدنة". وقد رواه ابن أبي حاتم فقال: أخبرنا أبو عبد الله الظهراني- فيما كتب إلي- قال: حدثنا عبد الرزاق فذكره بإسناده مثله، إلا أنه قال: "وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية". وقال في آخره: "فأهد إن شئت عن كل واحدة بدنة"؛ ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا قيس بن الربيع، عن الأغر بن الصباح، عن خليفة بن حُصَين قال: قدم قيس بن عاصم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني وأدتُ اثنتي عشرة ابنَة لي في الجاهلية أو: ثلاث عشرة، قال: "أعتق عددهن نَسِما". قال فأعتق عددهن نسما، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة

ناقة، فقال يا رسول الله، هذه صدقة قومي على أثر ما صنعت بالمسلمين؛ قال علي بن أبي طالب : فكنا نريحها ، ونسميها القيسية.

وقوله : {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} قال الضحاك: أُعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة: [صحيفتك] يا ابن آدم تُملى فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

وقوله:{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ} قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كشفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله:{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم. وقوله:{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} قال الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، والربيع بن خُثَيم أي: قربت إلى أهلها.

وقوله:{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} هذا هو الجواب، أي: **إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها** ، كما قال تعالى:{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}[آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى:{يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}[القيامة: ١٣]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا محمد بن مُطَرِّف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: لما نزلت:{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال عمر: لما بلغ{ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ }قال: لهذا أُجريَ الحديثُ. روى مسلم في صحيحه ، والنسائي في تفسيره عند هذه الآية، من حديث مِسْعر بن كِدَام، عن الوليد بن سَرِيع ، عن عمرو بن حُرَيث قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم الصبح، فسمعته يقرأ: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}. قال ابن أبي حاتم وابن جرير، من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن رجل من مراد، عن علي:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ}، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت خالد بن عرعرة، سمعت عليا وسئل عن:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} فقال: هي النجوم، تخنِس بالنهار وتكنس بالليل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هَوذة بن خليفة، حدثنا عوف، عن بكر بن عبد الله في قوله:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} قال: هي النجوم الدراريّ، التي تجرى تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة إنما قيل للنجوم: "الخنس"، أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها: "كُنَّس" من قول العرب: أوى الظبي إلى كِنَاسة: إذا تغيب فيه (الكِناس: مدخل في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر (المعجم الوجيز)). وقال الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} قال: بقر الوحش (خنس:

انخفضت قصبة أنفه مع ارتفاع قليل في طرف الأنف (المعجم الوجيز))، وكذا قال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عبد الله:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} ما هي يا عمرو؟ قلت: البقر. قال: وأنا أرى ذلك. وقال أبو داود الطيالسي، عن عمرو، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس:{الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} قال: البقر [الوحش] تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبير. وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الظباء. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مغيرة عن إبراهيم ومجاهد: أنهما تذاكرا هذه الآية:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} فقال إبراهيم لمجاهد: قل فيها بما سمعت قال فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئا، وناس يقولون: إنها النجوم. قال: فقال إبراهيم: قل فيها بما سمعت. قال فقال مجاهد: كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حُجْرتها. قال: فقال إبراهيم إنهم يكذبون على عليّ، هذا كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى، والأعلى الأسفل. وتوقف ابن جرير في قوله:{الْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مرادا. وقوله:{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه. قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا غَشى الناس، وكذا قال عطية العوفي. وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس:{إِذَا عَسْعَسَ} إذا أدبر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن:{إِذَا عَسْعَسَ} أي: إذا ذهب فتولى. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البَخْتَري، سمع أبا عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي رضي الله عنه حين ثَوّب المثوب بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر:{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}؟ هذا حين أدبر حسن. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله:{إِذَا عَسْعَسَ} إذا أدبر. قال لقوله:{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} أي: أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضا:

حَتّى إذا الصُّبحُ له تَنَفَّسا... وانجابَ عَنها لَيلُها وعَسعَسَا...

أي: أدبر. وعندي أن المراد بقوله:{عَسْعَسَ} إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال:{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}[الليل : ١ ، ٢] ، وقال:{وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}[الضحى : ١ ، ٢] ، وقال {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا}[الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات. وقال كثير من علماء الأصول إن لفظة "عسعس" تُستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يُراد كل منهما، والله أعلم. قال ابن جرير: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن "عسعس": دنا من أوله وأظلم. وقال الفراء: كان أبو البلاد النحوي يُنشد بيتًا :

عَسعَس حَتَّى لو يشاء ادّنا... كانَ له من ضَوئه مَقبس...

يريد: لو يشاء إذ دنا، أدغم الذال في الدال. وقال الفراء: وكانوا يَرَون أن هذا البيت مصنوع. وقوله:{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وهو المروي عن علي رضي الله عنه. وقال ابن جرير: يعني: وَضَوءُ النهار إذا أقبل وَتَبَيَّن. وقوله:{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} يعني: أن هذا القرآن لتبليغُ رسول كريم، أي: ملك شريف حَسَن الخلق بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام. قاله ابن عباس، والشعبي، وميمون بن مِهْران، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم. {ذِي قُوَّةٍ} كقوله {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ [فَاسْتَوَى]}[النجم: ٥ ، ٦]، أي: شديد الخَلْق، شديد البطش والفعل،{عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} أي: له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة. قال أبو صالح في قوله:{عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} قال: جبريل يدخل في سبعين حجابا من نور بغير إذن،{مُطَاعٍ ثَمَّ} أي: له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى. قال قتادة:{مُطَاعٍ ثَمَّ} أي: في السموات، يعني: ليس هو من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، مُعتَنى به، انتُخب لهذه الرسالة العظيمة. وقوله:{أَمِينٍ} صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله:{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} قال الشعبي، وميمون بن مهران، وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله:{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى:{وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ} يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح {بِالأُفُقِ الْمُبِينِ} أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله:{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}[النجم: ٥ - ١٠]. والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل عليه السلام. والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله:{وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}[النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنما ذكرت في سورة "النجم"، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. وقوله:{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم. ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل، بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عُيَينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل. وقال قتادة: كان القرآن غيبا، فأنزله الله على محمد فما ضَنّ به على الناس، بل بَلَّغه ونشره وبذله لكل من أراده. وقوله:{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر

على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له. كما قال:{وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}[الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

وقوله:{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} ؟ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله عز وجل، كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يُذهَب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ، أي: من إله. وقال قتادة:{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} أي: عن كتاب الله وعن طاعته. وقوله:{إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون،{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاةٌ له وهداية، ولا هداية فيما سواه،{وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين. قال سفيان الثوري ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن سليمان بن موسى: لما نزلت هذه الآية:{ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فأنزل الله:{وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}. آخر تفسير سورة "التكوير" ولله الحمد [والمنة].

* قد يشعر البعض منا أن معظم ما يستشهد به الإمام ابن كثير من أقوال في تفسيره لسورة التكوير، وبخاصة ما نُقل عن ابن عباس الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة والذي روي له رغم ذلك ١٦٦٠ حديثا، ، تقديري أو جزافي، ولا يتفق مع حقائق العلوم الحديثة، بل يخرج في كثير من الأحيان عن مقتضى اللغة العربية. ولقد حذفت بعض الأحاديث التي نقلها الإمام عن بعض كتب المسانيد والسنن لتنافيها مع مضمون معظم الأحاديث التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل ما ذُكر أنه صلى الله عليه وسلم قال" الوائدة والموءودة في النار"، فإن كانت الوائدة في النار جزاء لما اقترفته يداها، فما ذنب الموءودة حتى تلقى في النار!

على أن هذا هو محصلة الواقع الثقافي والمدارك المعرفية في ذلك الزمان، وهو ما جعل المفسرين فيما يبدو يركزون على تفسير معاني الكلمات بدلا من تفسير معاني الآيات أو السورة ومضمانيها ومغزاها، وهو أمر لا يعيبهم فهذا هو ما كان متوافر لهم في زمانهم، وإن كانت جرأة بعض المفسرين على النص على حقائق علمية ليس لديهم دليل على صحتها هو ما يثير الاندهاش، وهو ما يفرق بين تفسير الإمامين ابن كثير والقرطبي لسورة التكوير وتفسير الأستاذ سيد قطب لها وقد توافر له من المعارف العلمية والثقافية ما جنبه ما حفلت

به تفسيرات الإمامين من مزالق فكرية وعلمية وأعانه على تقديم تفسير لمضمون السورة ومغزاها. وجزى الله الجميع خير الجزاء على ما جهدوا فيه من تقريب معاني القرآن الكريم لجماهير المسلمين على مر الزمان.

ويقول الإمام شمس الدين القرطبي في كتابه: الجامع لأحكام القرآن

سورة التكوير مكية في قول الجميع. وهي تسع وعشرون آية؛ وفي الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"من سره أن ينظر إلي يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت". قال: هذا حديث حسن [غريب].

قوله تعالى:{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}، قال ابن عباس: تكويرها: إدخالها في العرش، والحسن: ذهاب ضوئها، سعيد بن جبير: عورت، أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تُلف فتُمحى. وقال الربيع بن خيثم: كورت: رُمي بها؛ ومنه: كورته فتكور؛ أي سقط. قلت: وأصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها، أي لاثها وجمعها فهي تُكور ويُمحى ضوءها ثم يُرمى بها في البحر، والله أعلم. وعن أبي صالح: كورت: نُكست. {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي تهافتت وتناثرت، وقال أبو عبيدة: أنصبت كما تنصب العقاب إذا انكسرت. قال العجاج يصف صقرا:

أبصر خربان فضاء فانكدر ... تقضّيَ البازي إذا البازي كسر

وروى أبو صالح عن **ابن عباس** قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض ، حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا"، يعني الأرض. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تساقطت، وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة، لأنه مات من كان يمسكها. ويُحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسُميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضا: انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها، والمعنى متقارب. قوله تعالى:{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء، وهو مثل قوله تعالى:{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}. وقيل: سيرها

تحولها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبا مهيلا أي رملا سائلا وتكون كالعهن، وتكون هباء منثورا، وتكون سرابا، مثل السراب الذي ليس بشيء، وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا. {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، الواحدة عشراء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضا. ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قرح: هاتوا مهري وقربوا مهري، ويسميه بمتقدم اسمه؛ قال عنترة :

لا تذكري مهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

وإنما خص العشار بالذكر لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس عطلها أهلها إلا حال القيامة. وهذا على وجه المثل لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه. وقيل: إنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهد بعضهم بعضا ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبؤوا بها ولم يهمهم أمرها. وخوطبت العرب بأمر العشار لأن مالها وعيشها أكثره من الإبل. وروى الضحاك عن ابن عباس: عُطلت: عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم. يقال: ناقة عشراء، وناقتان عشراوان، نوق عشار وعشراوات، يبدلون من همزة التأنيث واوا. وقد عُشرت الناقة تعشبوا: أي صارت عشراء. وقيل: العشار: السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل. وقيل: الديار تُعطل فلا تُسكن. وقيل: الأرض التي يُعشر زرعها تُعطل فلا تُزرع؛ والأول أشهر وعليه من الناس الأكثر. {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} أي جُمعت، والحشر: الجمع، عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقال ابن عباس: حشرها: موتها. رواه عنه عكرمة. قال ابن عباس: تُحشر الوحوش غدا، أي تُجمع حتى يُقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لها كوني ترابا فتموت. أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم، وقيل: عُني بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتنددها في الصحاري، تنضم غدا إلى الناس من أهوال ذلك اليوم. {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} أي ملئت من الماء، والعرب تقول: سجرت الحوض أسجره سجرا إذا ملأته وهو مسجور؛ والمسجور والساجر في اللغة: الملآن. وروى الربيع بن خيثم: سُجرت: فاضت وملئت. وقال ابن أبي زمنين: سجرت: حقيقته ملئت، فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا. وقيل: أُرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى امتلأت. عن الضحاك ومجاهد: أي فُجرت فصارت بحرا واحدا. القشيري: وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى:{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ}، فإذا رُفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الأرض كلها وصارت البحار بحرا واحدا. وقيل: صارت بحرا واحدا من الحميم لأهل النار. وعن الحسن أيضا وقتادة

وابن حيان: تيبس فلا يبقى من مائها قطرة. القشيري: وهو من سجرت التنور أسجره سجرا : إذا أحميته وإذا سلط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة وتسير الجبال حينئذ وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال. وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة، يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب نارا. قلت: ثم سُير الجبال حينئذ، كما ذكر القشيري، والله أعلم. وقال ابن زيد وشمر وعطية وسفيان ووهب وأبي وعلي بن أبي طالب وابن عباس في رواية الضحاك عنه: أُوقدت فصارت نارا. قال ابن عباس: يكور الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، ثم يبعث الله عليها ريحا دبورا، فتنفخه حتى يصير نارا. قال القشيري: قيل في تفسير قول ابن عباس "سجرت" أوقدت، يحتمل أن تكون جهنم في قعور من البحار، فهي الآن غير مسجورة لقوام الدنيا، فإذا أنقضت الدنيا سُجرت، فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها؛ ويحتمل أن تكون تحت البحر نار، ثم يوقد الله البحر كله فيصير نارا. وفي الخبر: **البحر نار في نار**. وقال معاوية بن سعيد: بحر الروم وسط الأرض، أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر نارا يوم القيامة. وقيل: تكون الشمس في البحر ، فيكون البحر نارا بحر الشمس. ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراطها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة. قلت: روي عن عبد الله بن عمرو: **لا يُتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم**. وقال أبي بن كعب: ست آيات من قبل يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، فصارت هباء منثورا، ففزعت الإنس إلى الجن والجن إلى الإنس، واختلطت الدواب والوحوش والهوام والطير، وماج بعضها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} ثم قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلي، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم. وقيل: معنى "سجرت": هو حمرة مائها، حتى تصير كالدم، مأخوذ من قولهم: عين سجراء: أي حمراء. قوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}، قال النعمان بن بشير: قال النبي صلى الله عليه وسلم "وإذا النفوس زوجت" قال: "يُقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله". وقال عمر بن الخطاب: يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة، السابقون زوج –يعني صنفا– وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج؛ وعنه أيضا قال: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقُرن الكافر بالشياطين، وكذلك المنافقون؛ وعنه أيضا: قُرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله؛ فالتزويج أن يُقرن الشيء بمثله؛ والمعنى: وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها في الجنة والنار. وقيل: يضم كل

رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان، كما قال تعالى:{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، أي أشكالهم. قوله تعالى:{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} الموؤودة المقتولة، وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يُطرح عليها من التراب، فيوءدها أي يثقلها حتى تموت؛ ومنه قوله تعالى:{وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} أي لا يثقله. وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين: إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به؛ الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفا من السبي والاسترقاق. وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق ، فقال:

ومنا الذي منع الوائدات ... فأحيا الوئيد فلم يوأَد

يعني جده صعصعة كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موؤودة. وقال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت ... والقبر صهر ضامن زميت

الزميت الوقور، والزميت مثال الفسيق أوقر من الزميت، وفلان أزمت الناس أي أوقرهم، وما أشد تزمته، عن الفراء. وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله:{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ}. قال عمر في قوله تعالى:{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} قال: جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني وأدت ثماني بنات كن لي في الجاهلية، قال: "فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة"، قال يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: "فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت". وقوله تعالى:{سُئِلَتْ} سؤال الموؤودة سؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرب: لم ضُربت؟ وما ذنبك؟ قال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قُتلت بغير ذنب. وقال ابن أسلم: بأي ذنب ضربت، وكانوا يضربونها. وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى:{سُئِلَتْ} قال: طلبت؛ كأنه يريد كما يطلب بدم القتيل. قال وهو كقوله:{وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً} أي مطلوبا؛ فكأنها طُلبت منهم، فقيل أين أولادكم؟ وقرأ الضحاك وأبو الضحا عن جابر بن زيد وأبي صالح "وإذا الموؤودة سألت" فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟! فلا يكون له عذر. قال ابن عباس وكان يقرأ "وإذا الموؤودة سألت" وكذلك هو في مصحف أبي. وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقا ولدها بثدييها، ملطخا بدمائه، فيقول يا رب، هذه أمي، وهذه قتلتني". والقول الأول عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى:{أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ} على جهة التوبيخ والتبكيت لهم، فكذلك سؤال

الموؤودة توبيخ لوائدها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب، فبأي ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها، ان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها، والله أعلم. قوله تعالى:{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} أي فُتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تُطوي بالموت، وتُنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها، فيقول:{مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}. وروى مرثد بن وداعة قال: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} إلى قوله:{الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} وتقع صحيفة الكافر في يده{فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ} إلى قوله{وَلا كَرِيمٍ}. وروي عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة" فقلت: يا رسول الله فكيف بالنساء ؟ قال: "شُغل الناس يا أم سلمة". قلت: وما شغلهم؟ قال:"نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل". وقال مقاتل: إذا مات المرء طُويت صحيفة عمله، فإذا كان يوم القيامة نُشرت. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم. وقرأ نافع وابن عام وعاصم وأبو عمرو "نشرت" مخففة ، على نشرت مرة واحدة، لقيام الحجة، الباقون بالتشديد، على تكرار النشر، للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع. وقيل: لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه. قوله تعالى:{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ} الكشط: قلع عن شدة التزاق، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره، والقشط: لغة فيه. وفي قراءة عبد الله "وإذا السماء قشطت". وكشطت البعير كشطا: نزعت جلده ولا يقال سلخته، لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلدته، وانكشط: أي ذهب. فالسماء تُنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء. وقيل: تطوى كما قال تعالى:{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}، فكأن المعنى: قلعت فطويت، والله أعلم. قوله تعالى:{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ}، أي أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها. يقال: سعرت النار وأسعرتها. وقراءة العامة بالتخفيف من السعير. وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد لأنها أوقدت مدة بعد مرة. قال قتادة: سعرها غضب الله وخطايا بني آدم. قوله تعالى:{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} أي دنت وقربت من المتقين. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. وكان عبدالرحمن بن زيد يقول: زُينت: أزلفت؟ والزلفى في كلام العرب: القربة، قال الله تعالى:{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} ، وتزلف فلان تقرب. قوله تعالى:{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} يعني ما عملت من خير وشر. وهذا جواب{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} وما بعدها. قال عمر رضي الله عنه لهذا أُجري الحديث. وروي عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنهما قرآها فلما بلغا{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} قالا لهذا أُجريت القصة؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء، علمت نفس ما أحضرت من عملها. وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما منكم من أحد إلا وسيكلمه

الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل" وقال الحسن: "إذا الشمس كورت" وقع على قوله:{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}، كما يقال: إذا نفر زيد نفر عمرو. والقول الأول أصح. قوله تعالى:{فَلا أُقْسِمُ} أي أقسم، و"لا" زائدة ، كما تقدم. {بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} هي الكواكب الخمسة الدراري: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة، فيما ذكر أهل التفسير، والله أعلم. وهو مروي عن علي كرم الله وجهه. وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان أحدهما: لأنها تستقبل الشمس؛ قاله بكر بن عبدالله المزني؛ الثاني: لأنها تقطع المجرة؛ قال ابن عباس. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت، وقاله علي رضي الله عنه، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها، أي تتأخر عن البصر لخفائها فلا تُرى. وفي الصحاح: "الخنس": الكواكب كلها لأنها تخنس في آن قيب، أو لأنها تخنس نهارا. ويقال: هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء في قوله تعالى:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}: إنها النجوم الخمسة، زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد؛ لأنها تخنس في مجراها وتكنس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت خنسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خنس عنه يخنس بالضم خنوسا: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه. والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خنس. وقد روي عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى:{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} هي بقر الوحش. روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: قال لي عبدالله بن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش؛ قال وأنا أرى ذلك. وروي عن ابن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عكرمة قال: "الخنس": البقر و"الكنس": هي الظباء، فهي خنس إذا رأين الإنسان خنسن وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن. القشيري: وقيل على هذا "الخنس" من الخنس في الأنف، وهو تأخرن الأرنبة وقصر القصبة، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك. قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يُعلم وجه الحكمة في ذلك. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبدالله وهما صحابيان والنخعي أنها بقر الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكنس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد النجوم. وقد قيل: إنها الملائكة، حكاه الماوردي. والكنس الغيب، مأخوذة من الكناس، وهو كناس الوحش الذي يختفي فيه. وقيل: الكنوس أن تأوي إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش والظباء. والكنس: جمع كانس وكانسة، وكذا الخنس جمع خانس وخانسة. والجواري: جمع جارية من جرى يجري. "والليل إذا عسعس" قال الفراء: أجمع

المفسرون على أن معنى عسعس أدبر؛ حكاه الجوهري. وقال بعض أصحابنا: إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. المهدوي: "والليل إذا عسعس" أدبر بظلامه، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وروي عنهما أيضا وعن الحسن وغيره: أقبل بظلامه. زيد بن أسلم: "عسعس" ذهب. الفراء: العرب تقول عسعس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير. الخليل وغيره: عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر. المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره. وهذه حجة الفراء. الماوردي: وأصل العس الامتلاء، ومنه قيل للقدح الكبير عس لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه، وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه على ظلامه، لاستكمال امتلائه به. ويقال للذئب العسعس والعسعاس والعساس، لأنه يعس بالليل ويطلب. ويقال للقنافذ العساعس لكثرة ترددها بالليل. والتعسعس أيضا : طلب الصيد [بالليل].

قوله تعالى: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} أي امتد حتى يصير نهارا واضحا؛ يقال للنهار إذا زاد: تنفس. وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: "إذا تنفس" أي انشق وانفلق؛ ومنه تنفست القوس أي تصدعت. {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} هذا جواب القسم. والرسول الكريم جبريل؛ قال الحسن وقتادة والضحاك. والمعنى "إنه لقول رسول" عن الله "كريم" على الله. وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام، ثم عداه عنه بقول{تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ليعلم أهل التحقيق في التصديق أن الكلام لله عز وجل. وقيل: هو محمد عليه الصلاة والسلام. {ذِي قُوَّةٍ} من جعله جبريل فقوته ظاهرة.{عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ} أي عند الله جل ثناؤه {مَكِينٍ} أي ذي منزلة ومكانة.{مُطَاعٍ ثَمَّ} أي في السموات. {أَمِينٍ} أي مؤتمن على الوحي الذي يجيء به. ومن قال إن المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى "ذي قوة" على تبليغ الرسالة "مطاع" أي يطيعه من أطاع الله جل وعز. {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} يعني محمدا صلى الله عليه وسلم بمجنون حتى يتهم في قول، وهو من جواب القسم. قوله تعالى:{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} أي رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. {بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} أي بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين، أي من جهته تُرى الأشياء. وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها. الماوردي: فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل أحدها: أنه رآه في أفق السماء الشرقي؛ قاله سفيان. الثاني: في أفق السماء الغربي، حكاه ابن شجرة. الثالث: أنه رآه نحو أجياد، وهو مشرق مكة؛ قاله مجاهد. وفي"المبين" قولان: أحدهما أنه صفة الأفق؛ قال الربيع. الثاني أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد. "وما هو على الغيب بظنين": بالظاء، قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، أي بمتهم، والظنة التهمة؛ واختاره أبو عبيد؛ لأنهم لم يبخلوه ولكن كذبوه؛ ولأن الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنما يقولون:

ما أنت على هذا بمتهم. وقرأ الباقون "بضنين" بالضاد: أي ببخيل من ضننت بالشيء أضن ضنا [فهو] ضنين. فروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: لا يضن عليكم بما يعلم، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. والغيب: القرآن وخبر السماء. ثم هذا صفة محمد عليه السلام. والظنون: الدين الذي لا يدري أيقضيه آخذه أم لا ؟ ومنه حديث علي عليه السلام في الرجل يكون له الدين الظنون، قال: "يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا". والظنون: الرجل السيء الخلق، فهو لفظ مشترك.{وَمَا هُوَ} يعني القرآن{بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} أي مرجوم ملعون، كما قالت قريش.{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} قال قتادة: فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته، كذا روى معمر عن قتادة، أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي. وقال الزجاج: فأي طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم. وقال الجنيد: معنى الآية مقرون بآية أخرى؛ وهي قوله تعالى:{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} المعنى: أي طريق تسلكون أبين من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قول الزجاج. "إِنْ هُوَ" يعني القرآن{إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} أي موعظة وزجر. و"إن" بمعنى "ما". وقيل: ما محمد إلا ذكر.{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} أي يتبع الحق ويقيم عليه. وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، وهذا هو القدر، فنزلت: "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين"، فبين بهذا أنه **لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله، ولا شرا إلا بخذلانه**. وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وقال وهب بن منبه: قرأت في سبعة وثمانين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر. وفي التنزيل:{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}. وقال تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}. وقال تعالى:{إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}، والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام وأضل بالكفر، كما تقدم في غير موضع. ختمت السورة والحمد لله.

وقال الأستاذ سيد قطب في كتابه: في ظلال القرآن

سورة **التكوير** مكيّة وآياتها تسع وعشرون.

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة: الأولى حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام والوحوش، كما يشمل بني الإنسان. والثانية حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة المَلَك الذي يحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزلت لهم الوحي. والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة تنطلق من عقالها فتقلب كل شيء، وتنثر كل شيء، وتهيج الساكن وتروع الآمن، وتذهب بكل مألوف، وتبدل كل معهود، وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه، وتتشبث به، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار، ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار، الذي له وحده البقاء والدوام، وعنده وحده القرار والاطمئنان ..

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن، لتلوذ بكنف الله، وتأوي إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار ..

وفي السورة- مع هذا- ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة، سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه، أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع. وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات. وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق، فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء. ولولا أن في التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارئ في هذا الزمان، لآثرت ترك السورة تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها ما لا تؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر، وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق. ولكن لا بد مما ليس منه بد، وقد بعدنا في زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن! «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ: بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ .. عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ» .. هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود، والثورة الشاملة لكل موجود. الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة، ونفوس البشر، وأوضاع الأمور، حيث ينكشف كل مستور، ويُعلم كل مجهول، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب، وكل شيء من حولها عاصف وكل شيء من حولها مقلوب! وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده، الكون المنسق الجميل، الموزون الحركة، المضبوط النسبة، المتين

الصنعة، المبني بأيد وإحكام، أن هذا الكون سينفرط عقد نظامه، وتتناثر أجزاؤه، وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها وينتهي إلى أجله المقدر، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا في هذا الكون المعهود. وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة – مهما بدت لها ثابتة– وتتصل بالحقيقة الباقية .. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول. ولكي تنطلق من إسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو اطار محدود! وهذا هو الشعور العام الذي ينسرب إلى النفس وهي تطالع مشاهد هذا الانقلاب المرهوب. **فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات، فعلمها عند الله وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسّنا وتفكيرنا** .. وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر، أو يتفجر من باطنها بركان جائح، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير، أو صاعقة .. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان .. كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال ..وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة .. تسليات أطفال!!! فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئا عن حقيقة ما يجري للكائنات، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة! إن تكوير الشمس قد يعني برودتها وانطفاء شعلتها وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء، كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف، واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢٠٠٠ درجة، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة .. استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض، وتكور لا ألسنة له ولا امتداد! قد يكون هذا، وقد يكون غيره .. أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله. وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذي يربطها، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها .. والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث، وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا .. مجموعتنا الشمسية مثلا، أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين من النجوم .. أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله، فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عددا ولا نهاية. فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله .. وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء، كما جاء في سورة أخرى: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً» .. «وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا» .. «وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً» .. فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها، وقد

يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض، والذي يقول عنه القرآن: «إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها ..» وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل ..أما قوله سبحانه:«وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ» .. فالعشار هي النوق الحبالى في شهرها العاشر، وهي أجود وأثمن ما يملكه العربي، وهي في حالتها هذه تكون أغلى ما تكون عنده، لأنها مرجوة الولد واللبن، قريبة النفع. ففي هذا اليوم الذي تقع فيه هذه الأهوال تُهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة، ولا يهتم بشأنها أحد ..والعربي المخاطب ابتداء بهذه الآية لا يهمل هذه العشار ولا ينفض يده منها إلا في حالة يراها أشد ما يلم به! «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ» .. فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب ونسيت مخاوفها بعضها من بعض، كما نسيت فرائسها، ومضت هائمة على وجوهها، لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عادتها، ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها؛ فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب؟! وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه، وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها، وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض .. وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال في موضع آخر: «وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ» .. فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها، أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة، وهو أشد هولا، أو على أي نحو آخر. وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار. فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا، فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر، فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة! وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها، ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة، كما قال في موضع آخر:«وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً» أي صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة! «وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ: بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟» وقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر. وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية، التي جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها، ويرفع البشرية كلها. فقال في موضع:«وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ. أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ؟ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ!» .. وقال في موضع:«وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا (أي البنات) ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟»..وقال في موضع ثالث: «وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» ..وكان الوأد يتم في صورة قاسية، إذ كانت البنت

تُدفن حية! وكانوا يفتنون في هذا بشتى الطرق. فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها، ثم يقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها! وقد حفر لها بئرا في الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة، فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها، وإن كان ابنا قامت به معها! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعي، فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله! فأما الذين لا يئدون البنات ولا يرسلونهن للرعي، فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس ..كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه. ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها، لا عبرة برغبتها هي ولا إرادتها! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها، أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك .. وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها .. وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها .. وكان الرجل تكون اليتيمة في حجرة يلي أمرها، فيحسبها عن الزواج، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها! أو يزوجها من ابنه الصغير طمعا في مالها أو جمالها ..فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال. حتى جاء الإسلام يشنع بهذه العادات ويقبحها، وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته، ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة. **يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام، ويقول: إن الموءودة ستسأل عن وأدها ..فكيف بوائدها؟!** وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا لولا أن تتنزل بها شريعة الله ونهجه في كرامة البشرية كلها، وفي تكريم الإنسان، الذكر والأنثى، وفي رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلي الأعلى. فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الإسلام ، لا من أي عامل من عوامل البيئة. وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض، تحققت للمرأة الكرامة، فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها. لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها في ميزانها. إنما الوزن للروح الإنساني الكريم المتصل بالله. وفي هذا يتساوى الذكر والأنثى. وحين تعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله، وأن الذي جاء به رسول أوحي إليه .. تعد هذه النقلة في مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل التي لا تخطئ. حيث لم تكن توجد في البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهي بالمرأة إلى هذه الكرامة ولا دافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهي ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها ، وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة. فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاء، يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوي محض كذلك! «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» صحف الأعمال ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها،

فلا تعود خافية ولا غامضة. وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى. فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها، ويرجف ويذوب من كشفها! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة! إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يُكشف المخبوء، ويظهر المستور، ويفتضح المكنون في الصدور. وهذا التكشف في خفايا الصدور يقابله في الكون مشهد مثله: «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ» .. وأول ما يتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس وكشطها إزالتها .. فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء. ولكنا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية، التي توجد بها هذه الظاهرة. وهذا يكفي ..

ثم تجيء الخطوة الأخيرة في مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب: «وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ» .. حيث تتوقد الجحيم وتتسعر، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها .. أما أين هي؟ وكيف تتسعر وتتوقد؟ وبأي شيء تتوقد؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى:«وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ»، وذلك بعد إلقاء أهلها فيها. أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها! وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها، وتبدو لهم سهولة مدخلها، ويسر ولوجها، فهي مزلفة مقربة مهيأة، واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها!! عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها في كيان الكون، وفي أحوال الأحياء والأشياء، عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت، وما تزودت به لهذا اليوم، وما حملت معها للعرض، وما أحضرت للحساب:«عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ» ..كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها .. تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها .. تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئا مما أحضرت، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه .. تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها، معهود في حياتها أو تصورها، وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها. وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء، ولم يبق إلا وجه الله الكريم، الذي لا يتحول ولا يتبدل .. فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم، فتجده سبحانه عندما يتحول الكون كله ويتبدل! وبهذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب.

ثم يجيء المقطع الثاني في السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة، تُختار لها تعبيرات أنيقة .. القسم على طبيعة الوحي، وصفة الرسول الذي يحمله، والرسول الذي يتلقاه، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ، الْجَوارِ الْكُنَّسِ ، وَاللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي

قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ، وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» .. والخنس الجوار الكنس .. هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي. والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء، وهي تجري وتختبئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى. فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب، وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها، في اختفائها وفي ظهورها، في تواريها وفي سفورها، في جريها وفي عودتها، يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه. «وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ» .. أي إذا أظلم. ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك. فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين: عس، عس. وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع. ومثله : «وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» .. بل هو أظهر حيوية، وأشد إيحاء، والصبح حي يتنفس، أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي. وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيرا لهذا التعبير عن الصبح. ورؤية الفجر تكاد تُشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح. وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى:«فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ، وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» .. ثروة شعورية وتعبيرية فوق ما يشير إليه من حقائق كونية، ثروة جميلة بديعة رشيقة تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر، وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر. يلوح بهذه المشاهد الكونية التي يخلع عليها الحياة ويصل روح الإنسان بأرواحها من خلال التعبير الحي الجميل عنها لتسكب في روح الإنسان أسرارها، وتشي لها بالقدرة التي وراءها، وتحدثها بصدق الحقيقة الإيمانية التي تدعى إليها .. ثم يذكر هذه الحقيقة في أنسب الحالات لذكرها واستقبالها: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» ..إن هذا القرآن، وهذا الوصف لليوم الآخر .. لقول رسول كريم .. وهو جبريل الذي حمل هذا القول وأبلغه .. فصار قوله باعتبار تبليغه. ويذكر صفة هذا الرسول، الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه .. «كَرِيمٍ» عند ربه. فربه هو الذي يقول .. «ذِي قُوَّةٍ» .. مما يوحي بأن هذا القول يحتاج في حمله إلى قوة. «عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» .. في مقامه ومكانته .. وعند من؟ عند ذي العرش العلي الأعلى. «مُطاعٍ ثَمَّ» هناك في الملأ الأعلى. «أَمِينٍ» .. على ما يحمل وما يبلغ ..وهذه الصفات في مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه. كما توحي بعناية الله سبحانه بالإنسان، حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه، ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه .. وهي عناية تُخجل هذا الكائن، الذي لا يساوي في مُلك الله شيئا، لولا أن الله– سبحانه– يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة! فهذه صفة الرسول الذي حمل القول

وأداه، فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو «صاحِبُكُمْ» .. عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون وتذهبون في أمره المذاهب، وهو «صاحِبُكُمْ» الذي لا تجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين: «وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» .. ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون رجاحة عقله، وصدقه وأمانته وتثبته، قالوا عنه: إنه مجنون، وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول. قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار. وقاله بعضهم عجبا ودهشة من هذا القول الذي لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون، وتمشيا مع ظنهم أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد، وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد، وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب! وتركوا التعليل الوحيد الصادق، وهو أنه وحي وتنزيل من رب العالمين. فجاء القرآن يحدثهم في هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع، وحيوية مشاهده الجميلة، ليوحي إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة، التي أنشأت ذلك الجمال، على غير مثال. وليحدثهم بصفة الرسول الذي حمله، والرسول الذي بلَّغه، وهو صاحبهم الذي عرفوه، غير مجنون، والذي رأى الرسول الكريم، جبريل، حق الرؤية بالأفق المبين الواضح الذي تتم فيه الرؤية عن يقين؛ وأنه صلى الله عليه وسلم لمؤتمن على الغيب، لا تُظن به الظنون في خبره الذي يرويه عنه، فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين. «وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ» فالشياطين لا توحي بهذا النهج القويم. ويسألهم مستنكرا: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟» ..أين تذهبون في حكمكم وقولكم؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم! «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ»، ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم، وحقيقة نشأتهم، وحقيقة الكون من حولهم ..«لِلْعالَمِينَ» .. فهو دعوة عالمية من أول مرحلة، والدعوة في مكة محاصرة مطاردة، كما تشهد مثل هذه النصوص المكية ..وأمام هذا البيان الموحي الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد. وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير:«لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» .. أن يستقيم على هدى الله، في الطريق إليه، بعد هذا البيان، الذي يكشف كل شبهة، وينفي كل ريبة، ويُسقط كل عذر، ويوحي إلى القلب السليم بالطريق المستقيم. فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه، فقد كان أمامه أن يستقيم. والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد، وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحي الموقظ. وما ينحرف عن طريق الله – بعد ذلك– إلا من يريد أن ينحرف في غير عذر ولا مبرر! فإذا سجل عليهم إمكان الهدى، ويسر الاستقامة، عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم، حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء هي مشيئة الله سبحانه ..«وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعالَمِينَ» ..وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى التي يُرجع إليها كل أمر. فإعطاؤهم حرية الاختيار، ويسر الاهتداء، إنما يرجع إلى تلك المشيئة المحيطة بكل شيء كان أو يكون! وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق، يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة: حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله. وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير، شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون. فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان. ولا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين، ليدركوا ما هو الحق لذاته، وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق، ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق!